عينية حُمَيْد بن ثور بين الخفاء والجلاء

د. علي كمال الدين الفهادي (*)

كم حفل الشعر العربي بالطبيعة والمرأة حتى ليمكن القول إن قصيدة منه لا تخلو من ذكر واحدة منهما أو كلتيهما ، ولاسيما مقدمات القصائد ، وقد علل ابن قتيبة ابتداء مقصد القصيد بذكر الطبيعة والمرأة في الطلل والنسيب لكونهما مشتركين في المحبة بين سائر الناس (1). ودعا القرآن الإنسان إلى تأمل الطبيعة وآياتها تأملا يبعث العقل على التفكر والاستنتاج الذي يهدي إلى عظمة الخالق وجماله وجمال ما خلق والإيمان به ، قال سبحانه: " إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار "(2).

هذا التأمل أصّل مفهوما للطبيعة لدى الإنسان جعله يشعر بالإيجابية والتفاؤل واستثمار الطبيعة بدلا من الخوف والتضرر والإيذاء الذي وجد في مفهوم العهد القديم(3).

(*) أستاذ مساعد ـ كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) ينظر الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (- 276 ه) ، تح : أحمد محمد شاكر دار المعارف، 1958 م ، القاهرة: 1/ 74 - 75 .

(2) سورة آل عمران ، الآيات : 189 - 191 .

(3) ينظر: الطبيعة في القرآن الكريم ، الدكتور كاصد ياسر الزيدي، دار الرشيد، 1980 م ، بغداد : 148.

وحميد بن ثور معني بهذا التبدل الذي أحدثه القرآن الكريم في نفوس الناس فهو شاعر مخضرم قضى الشطر الأكبر من حياته في الإسلام وعده ابن سلام من شعراء الطبقة الرابعة من الفحول الإسلاميين، توفي على الأرجح أيام عثمان رضي الله عنه وأشاد به وبشعره المرزباني والأصمعي وابن قتيبة[4].

وتعد قصيدته العينية من نوادر القصائد التي حفلت بالطبيعة والمرأة وانبثقت من رؤية إسلامية للكون والحياة والإنسان، إذ جمعت بين التصور الإسلامي للمرأة والدنيا والطبيعة والإنسان ومآلهم إلى الحياة الآخرة ووقوع ذلك كله في دائرة القدرة الإلهية، فالله خالق الكون ومالكه والمتصرف في شؤونه .

تقع القصيدة العينية[5] في تسعة عشر بيتا على ثلاثة أقسام : الأول منها في وصف الطبيعة ويتمثل في الأبيات الستة الأولى، والثاني منها في المرأة ويتمثل في الأبيات الثمانية من السابع وإلى الرابع عشر، والثالث منها خاتمة القصيدة في الحياة الدنيا وانشغال الناس بها ويتمثل في الأبيات الخمسة الأخيرة بما فيها البيت الأخير (المقطع) .

القسم الأول : وصف الطبيعة

يبدأ حميد عينيته بوصف الطبيعة إذ يرصد السحب ومسيرتها محملة بالماء المبشر بالخصب والنماء مفتتحا القصيدة بتشبيه تتوافر له عناصر التشبيه كلها : ركناه وأداته ووجه الشبه .

---

(4) ينظر: ديوان حميد بن ثور الهلالي وفيه بائية أبي دؤاد الإيادي (- 30 ه)، تح : عبد العزيز الميمني، دار الكتب 1951 م، القاهرة : ح وما بعدها .

(5) ديوانه : 107 - 110.

1- كأن الربابَ الدهم في سَرَعانِه عشار من الكلبيّة الجون ظُلّعُ [6]

فالنوق عشار تظلع في مشيها من ثقلها ، وتحمل في الوقت نفسه بشائر الولادة والخير والحياة والرزق من الألبان والسمن لكنها بشرى تبقى معلقة بفعل السحاب يغيث أم لا يغيث والعشار السحب مثلما ذكر المفسرون [7] ، من قوله تعالى : " وإذا العشار عطلت " [8]

2- أدَانيهِ للأمواه من بطن بِيشة وللأَوْق والسِيدان والمَيْن يَضجَعُ [9]

3- كأن اشتعال البرق في حَجَراته ضرامُ شَرَى في أَيْكَةِ يتشيع [10]

4- خفا كاقْتِذَاء الطير والليل مدبر بجُثمانه والصبح قد كاد يسطَع [11]

5- دجا الليل واستَنَّ استنانا زفِيفُه كما استنّ في الغاب الحريق المشَعْشَع [12]

6- تَرَوَّى من البحرين عُوذَ رَمِيَّةِ كما استَرْبَعَ البَزَّ القطار المطَبَّع [13]

---

(6) الرباب: السحاب. المتعلق : الذي تراه كأنه دون السحاب . والدهم : السود . وسرعانه : أوائله . والعشار : جمع عشراء ، وهي النوق التي مضى لحملها عشرة أشهر . والكلبية : إبل منسوبة إلى كلب بن وبرة . والجون: الدهم الشديدة السواد . وظلع : تغمز في مشيها .

(7) المختار من تفسير القرآن العظيم ، محمد متولي شعراوي : 1/ 126 .

(8) سورة التكوير، الآية : 5 .

(9) بيشة واد من أودية تهامة .والأوق : موضع بالبادية في ديار بني جعدة . والسيدان : موضع من أرض بني سعد. والمين : موضع .

(10) حجراته : نواحيه. يريد نواحي السحاب. والضرام هنا : اشتعال النار في الحلفاء ونحوها. شبه اشتعال البرق به. وشرى: تفرق وتتابع . والأيكة : واحدة الأيك، وهو الشجر الكثير الملتف، أو هو الغيضة تنبت السدرى والأراك ونحوهما من ناعم الشجر .

(11) يصف برقا. وخفى البرق خَفْوَا وخُفُوّاً : لمع. واقتذاء الطير: فتحها عيونها وتغميضها كأنها تجلي بذاك قذاها ليكون أبصر لها .

(12) استن: انتشر وذهب كل مذهب. وزفيفه: بريقه. والمشعشع: المتفرق هنا وهناك .

(13) استربع : احتمل بما قوي عليه . المطبع: المثقل بالحمل .رَوِيَ وتروَّى: شرب وشبع يريد السحاب. والبحرين موضع بين البصرة وعمان، لأن بين قراه وبين البحر الأخضر عشرة فراسخ. وعوذ جمع عائذ

حمل الغيم الماء من البحرين فتتابع على هيأة سحب كأنها قافلة تجارية من الإبل تحمل القماش المطبّع، ومثلما تبشر النوق العشار بالولادة والخير والعطاء، تبشر السحب بالخصب والزرع والنماء والعلاقة بين الإبل والسحب وثيقة فالإبل في المنام تعبر"بالسحب والأمطار، والقطار من الإبل في الشتاء دليل على القطر والناقة امرأة أو سنة "(14) وهذه البشائر في الحياة.

تعد بالخير في الدنيا فهي مدعاة إلى التفاؤل والأمل الذي يسطع بين الحين والحين كهذا البرق الذي يضيء في دجى الليل فيوشك أن يشق الفجر صبحاً لأن البرق في تعبير الأحلام "هدى بعد ضلالة "(15) والمقدمة صورة للحياة الدنيا فهي أشبه بهذا البرق والسحاب حامل الماء حامل الحياة يأتي بها من البعيد يحملها مثلما تحمل الإبل الكسوة والثياب ولكنها دنيا ليست دائمة، دنيا مهددة بالنار دوماً فهذا البرق في لمعانه في البيت الثالث كأنه ضرام في غابة كثيفة الشجر وانتشار البرق في البيت الخامس كانتشار الحريق، والشاعر يقيم جمالا فنيا خفيا باستدعاء النقيض، نقيض الحياة (النار) التي تحرق الغابة والتجارة رمزا الحياة فالموت بالحريق والحياة بالغابة والعمل بالدنيا والجزاء بالآخرة وعمل المغتر بالدنيا يذهبه حريق الآخرة.

وهي هنا قطع السحاب الصغيرة الحديثة التكوين، على التشبيه من أولاد الظباء والإبل والخيل الحديثة النتاج. والرمية هنا: السحابة العظيمة الوقع وهي من سحائب الصيف والخريف. والبز: الثياب. والقطار: أن تشد الإبل على نسق، واحداً خلف واحد. يقول شرب السحاب قطعاً صغيرة فتجمعت فأحتملها فثقل بها كما ثقل قطار الإبل بالثياب.

(14) منتخب الكلام في تفسير الأحلام، محمد بن سيرين، دار الحرية للطباعة، 1988، بغداد : 1/348- 353

(15) تعطير الأنام في تعبير المنام، عبد الغني النابلسي، دار الحرية، 1988م، بغداد: 1/48 .

فالإقبال على الدنيا والغفلة عن الآخرة - كما يريد الشاعر أن يقول - أمر يجب الحذر منه فلا ركون إلى الدنيا لأنها وإن كانت حلوة خضرة مثل شجر الأيك فإن الإقبال عليها والافتتان بها مهدد بالنار كما الشجر مهدد بالحريق وما جمال هذه الدنيا إلا في الأولاد والبنين كما تبشر بذلك صورة السحب في البيت السادس المحملة بالماء كأنها (عَوْذ رميّة) شبيهة بأولاد الظباء والإبل والخيل الحديثة النتاج ومقدمة القصيدة هذه ما هي إلا رؤيا رآها الشاعر في حلم يقظته وهي رؤيا مرمزة تتداخل فيها رموز الإبل برموز السحاب والبرق والتجارة. والسحاب في تعبير المنام "يدل على الإسلام الذي به حياة الناس ونجاتهم وهو سبب رحمة الله تعالى لحمله الماء الذي به حياة الخلق ، وربما دل السحاب على العلم والفقه والحكمة والبيان ... وربما دل على الإبل المقاوِمَة بما ينبت بالماء ...فإن كان السحاب أسود فإنه حكمة مع سؤدد ومروءة وسرور" [16] وما هذه المقدمة إلا الحياة الدنيا التي تسحر الإنسان بجمالها وبيانها وصورها ووعودها بالآمال والأحلام، لكن إن أمطرت وفت بوعدها ، ولكنها غيوم في سماء الصيف فالحذر الحذر أن نغتر بها فتذهب الريح بسحابتها وتذهب معها آمالنا إلى زوال، لقد بنى الشاعر مقدمته هذه من ستة أبيات جعل كل بيت منها صورة تشبيهية رائعة البيان ولقد شكل القرآن الكريم صوره وتصوراته بصورة موحية ليست مباشرة لذلك لا نتلمس تأثير القرآن الكريم في هذه المقدمة إلا بعد مطاولة لقراءتها ولاسيما الآية الكريمة: "وأضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فأختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما

---

(16) نفسه: 373/1.

تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرا، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا " [17].

إن نار البرق تأكل الخصب والعشب والشجر، ولأن الفرحة بالأمان والانشغال بلهو الحياة قد يأكل عمل الإنسان في الآخرة مع أن الدنيا تملأ حياته أحلاما وأماني كما يفعل سحاب الصيف. وهنا يمكن القول بأن السحاب بتشكيلاته معادل فني للحياة الدنيا .

يتوقف حميد عن الحديث عن السحاب الذي لم يمطر وقافلة الإبل المثقلة بحمل الثياب التي لم تصل إلى غايتها ويتخلص من مقدمة السحاب ليحسن الانتقال إلى القسم الثاني من القصيدة في وصف صلته بالمرأة التي تتسبب له بالبكاء كلما ذكرها.

القسم الثاني : المرأة

7- ألا ما لعيني لا أبا لأبيكما إذا ذكرت ليلى تُرِبُّ فتدمع [18]

8- وما لفؤادي كلما خطر الهوى على ذاك فيما لا يواتيه يطمع [19]

لا يكتفي حميد بن ثور بالسحاب معادلا فنيا للحياة الدنيا ففيه من الخفاء ما يعمّيه عن الإدراك المباشر فيلجأ إلى معادل فني آخر صنو السحاب هو المرأة يعالجه بثمانية أبيات وهو عدد مقارب للأبيات الستة للمقدمة ولا نشعر بانتقالاته إلى القسم الثاني لأنه برع في التخلص إليه بالتنبيه والاستفهام الخارج إلى التعجب ليلفت

(17) سورة الكهف ، الآيتان : 45 ـ46.

(18) ترب : تديم البكاء . وكل مرب مقيم .

(19) يعجب لفؤاده كيف يطمع فيما لا يواتيه.

انتباهنا عن تخلصه ويدهشنا بسحر ليلى التي كلما ذكرت بكى من شغفه بها وحزنه عليها وطمعه بوصلها فيكرر اسمها ثلاث مرات بعدد أقسام قصيدته ثم يتبع تعجبه الأول من البكاء بتعجب سماعي آخر عن لهفة قلبه وهواه الطامع أبداً بوصالها مع أنها لا تواتيه ولا تواصله، ويتساءل كيف ينساق مع هواه ذلك الهوى الذي قرنه الإسلام دوماً بالزيغ والظلال . فالهوى يدفع النفس وصاحبها إلى الخطيئة والغواية والآثام والتعلق بأذيال الدنيا الفانية.

9- أجِدَّ بليلى مدحةً عربية   كما حُبِّرَ البُرد اليماني المُسَبَّع [20]

الشاعر يدلنا على حسن العمل وجودته وإتقانه في الحياة الدنيا لأننا إن أحسنّا فيها فسوف تعطينا جواز رحيل آمن إلى الحياة الآخرة، وهذا هو السبيل الوحيد الذي يسلكه المؤمن للإفادة من الدنيا وهذا العمل أحلى وأجمل أماني المؤمن لأنه وعد للمستقبل يختلف عن مواعيد الدنيا للإنسان تلك الأماني التي تنبع من الهوى وتذهب أدراج الرياح كما كانت في شباب الشاعر.

10- تُثِبْكَ بما أسديت أو ترج وعدها   وما وعدها فيما خلى منك ينفع [21]

(20) أجد بليلى: يريد ألبسها ثوباً جديداً. والمدحة: أسم من المدح، وهو حسن الثناء. والبرد: ثوب فيه خطوط . وتحبيره: توشيته. والمسبع ومثله السباعي: الثوب الذي طوله سبع أذرع. يقول: ألبس ليلى من شعرك مدحة أشبه بالبرد الموشى الذي طوله سبع أذرع.

(21) تثبك: مجزوم في جواب (أجدّ) في البيت السابق. وترجُ: عطف عليه. يقول: امدحها تجد عندها ثواب مدحك إياها، أو ترجو وعداً ينفعك الآن، وهو الوعد الذي لم ينفعك فيما خلا من أيامك.

ويكمل الشاعر صورة الحياة الدنيا في البيت الحادي عشر فهي معطرة جميلة في عز الصبا ولكنها دنيا المؤمن تأبى كل ما يأباه الكريم وتترفع عنه كما يترفع هو إنهما متشابهان .

11- وليلى أَرُوجُ الجَيْب مَيّاعَةُ الصّبا أَبِيّ لما يأبى الكريم وترفع [22]

12- مُشَرَّفَةُ الأعطاف مهضومة الحشا بها القلب لو تجزيه بالقرض مولع [23]

13- وما لي بها علم سوى الظَّنّ والذي إلى بيته تزجى حواف وظلّع [24]

ليس للشاعر علم بما تأتي به الدنيا سوى الظن، فلو كانت ليلى امرأة حقيقية، زوجة أو حبيبة عرفها لتحدث عنها حديث الموقن العارف ، لكنها الدنيا التي لا يعرف أسرارها أحد ولا يعرف جزاء عمله فيها أحد إلا يوم القيامة لذلك أخر لفظة (الظن) وهي لفظة تمزج الشك باليقين وتخلطه إلا إذا اقترنت بقرينة (حسن أو سوء) وهذه حال المؤمن يحسن الظن بالله وبثوابه لكنه لا يعلم يقينا نتائج عمله ويقسم الشاعر على ظنه ذلك بالله الذي تساق إليه الإبل من بعيد حتى تحفى أخفافها من طول السفر وتأتي إلى الحج من كل فج عميق. إن الشاعر يجهل مستقبل الدنيا (ليلى) ولكنه يعلم ماضيها أيام كان شابا.

14- سوى أنني قد كنت أعلم أنها هي العذب والماء البَضَاع المُنَقِّع [25]

---

(22) أروج: فعول من الأرج وهو نفحة الريح الطيبة. ومياعة الصبا: في أول صباها ونظرته. والأبي: العائف المتكره الذي لا يرضى الدنية كبرا.

(23) الأعطاف: جوانب الشخص من لدن رأسه إلى وركيه. ومهضومة الحشا: خمصاء البطن لطيفة الكشح قليلة انجفار الجنبين. والقرض: الدين. يقول القلب مولع بها، فأتمنى أن تجزيه بالقرض مثله!

(24) تزجى: تساق. والحوافي: النوق التي حفيت أخفافها من طول السفر. والظلع: التي تغمز في مشيها .

(25) الماء البضاع: الذي يروي العطش والمنقع الذي ينقع العطش نقوعاً، يذهبه ويسكته.

هكذا كانت الدنيا (ليلى) ماء عذبا يروي غليل الشاعر، وهاهو مرة أخرى يرجع إلى الماء أصل الحياة الذي ذكره في القسم الأول في صورة السحاب ليربط هذا القسم بسابقه فيعزز وحدة قصيدته العضوية والموضوعية ويؤكد تفسيرنا للسحاب وليلى بأنهما معادلان فنيان للدنيا وتأويل معبر الأحلام من أن المرأة "إن كانت جميلة دالة على السنة المقبلة بالخير والراحة ... والمرأة الجميلة مال لا بقاء له لأن الجمال يتغير ... والمرأة دنيا ولذة ومنفعة" وقول عبد الغني النابلسي عن الدنيا: "هي في المنام امرأة كما أن المرأة في المنام دنيا" [26] وإذا كان الشاعر قد بنى قسمه الأول على خمسة تشبيهات فإنه قد بنى القسم الثاني على ثلاثة استفهامات تعجبية سماعية في البيت السابع والثامن والعاشر وتشبيه في التاسع وقسم في الثالث عشر فليلى هي الدنيا في تصور الشاعر وليس هذا التصور حصرا عليه بل هو تصور ورؤية رآها الناس كلهم عبر الأزمنة والأجيال في القسم الثالث الذي يسوقه في ذكريات قديمة يتداولها الناس والشاعر.

القسم الثالث : الحياة الدنيا

15- وكائن لقينا من نعيم ولذة　　　وأعجبنا المصطاف والمُتـَرَبَّع [27]

16- وقلنا لعل الماء يربو فنقتني　　　وعلَّ غلاما ناشئاً يترعرع [28]

---

(26) تعطير الأنام : 275/1 و 2/ 322 –223.

(27) كائن: اسم استفهام يفيد التكثير، أي كثيرا ما لقينا. والمصطاف: المنزل ينزل به القوم أيام الصيف. والمتربع: المنزل ينزلون به أيام الربيع.

(28) أي كثيرا ما قلنا. ونقتني: نتخذ لنا مالاً للقنية.

17- أمانيَّ عام بعد عام تعلّلت   بأمثالها بالناس عاد وتُبلـَّع [29]

هنا في القسم الثالث يتحدث عن الدنيا بجلاء دون معادل فني فيكشف ما أخفاه في القسمين الأول والثاني فالمرء مهما عاش منعماً في الدنيا مستمتعا بصيفها وربيعها وتقلبات فصولها فإنما هي انشغال وتشاغل ولهو بالمال والولد وطول العمر ومرة أخرى يعود الشاعر إلى الماء الذي يربو ويطول به العمر لأن الماء رمز الحياة : "وجعلنا من الماء كل شيء حي" [30] والأماني سنة هذه الحياة على دوام الزمن ليس اليوم في عصر حميد ولكن من عهود وأحقاب بعيدة وسحيقة من عهد عاد وتبع ولكن هل أدرك الناس حقيقتها التي صورها الله على أنها زائلة ذاهبة فانية بائدة سرورها غرور ولذتها زوال ورحيل: "اعلموا أنمّا الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" [31] أما المقيم الدائم السرمد الذي لا يزول فهو عطاء الله في الحياة الباقية الدائمة في النعيم الذي يهبه الله لمن يشاء من عباده والشاعر في البيت الثامن عشر يصرح بمعادله الفني (الدنيا) بلفظه في القسم الثالث مرة أخرى .

18- ولكنما الدنيا غرور ولا ترى   لها لذة إلا تبيد وتنزع

---

(29) الأماني: جمع أمنية، وهي كل ما يتمنى المرء. والتعلل: التشاغل. يقول إن ما لقينا من نعيم ولذة، وإن إعجابنا بالمصيف والمتربع، ورجاءنا أن يزيد الماء فنقتني مالا، وأن يترعرع فينا الغلام الناشيء، إن كل هذا أماني تشاغل بها الناس منذ زمن بعيد.

(30) سورة الأنبياء ، الآية: 30.

(31) سورة الحديد، الآية: 20.

وإذا كانت رؤية الشاعر للحياة الدنيا والطبيعة والمرأة والإنسان المعاصر له والإنسان البائد من عهد عاد وتبّع [32] رؤية إبداع أخفاها في ظل السحاب وخلف الإبل والبرق والطير وهي رؤية بها حاجة إلى الناقد الذي يجلو خفاءها في القسمين الأول والثاني فإن الشاعر يخرج إلى ساحة العراء المكشوف في القسم الثالث ليبين لنا رؤيته الإسلامية الحكيمة المتأثرة بالتصور القرآني للحياة والكون والإنسان تبيانا جليا من خلال رؤيته باللمحة السريعة (ولكنما الدنيا غرور) التي تحيل إلى الآيات التي تمثل مرجعيته التي استمد منها رؤيته وخلاصة التجربة البشرية التي عرضها لنا في هذه القصيدة، آية تهوّن من شأن الدنيا الشبيهة بالغيم الذي ينبت الزرع ثم يزول بسرعة ومنها "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور"[33] وآية تبين عظمة الخالق الذي يملك كل ما في الكون: " قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء" [34] الله الذي يملك السماوات والأرض وما بينهما : "ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما"[35] ويختتم قصيدته في البيت التاسع عشر مسلما كل شيء لله .

19 - فلله ما فوق السماء وتحتها   له المال يعطي من يشاء ويمنع [36]

(32) عاد :قوم هود عليه السلام الذين ضرب الله بهم المثل وجعلهم عبرة ونكالا للبشرية لما كذبوا من الرسل والأنبياء وصدّوا عن سبيل الله فعبدوا دنياهم وغرّتهم بالأماني والأوهام وذكرهم القرآن الكريم في موضع العبرة أربعا وعشرين مرة. وقوم تبّع ذكرهم في العبرة نفسها مرتين. ينظر: لفظا عاد وتبّع في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(33) سورة الحديد، الآية: 20 وأوردناها كاملة في الصفحة الخامسة من البحث.

(34) سورة آل عمران، من الآية: 26. وينظر الآية: 189 .

(35) سورة المائدة، الآية: 17. وينظر الآيات: 18 و40 و120. وسورة الأعراف، الآية: 7. والتوبة، الآية: 116.

(36) المال هنا: المملوك من كل شيء.

الدراسة الفنية

وحدة القصيدة ومطلعها وخاتمتها

ربما ينم ظاهر القصيدة عن تفكك في أقسامها الثلاثة إذا أخذنا بظاهر القصيدة وجلي ما فيها من المعاني، بيد أننا إذا حاولنا سبر غورها واستكشاف مخفيها وجدناها متلاحمة الأقسام تتجه بأقسامها الثلاثة إلى تصور واحد للكون ولخالقه وأود الإشارة إلى مطلع القصيدة ومقطعها فإن بينهما صلة جمالية رائعة فريدة إذ يخفي المطلع الإسلام والدنيا تحت رموز السحاب والإبل والمقطع (البيت الأخير) الذي يقيم علاقة جدلية بين خفاء المطلع وجلاء الخاتمة حين يصرح بأن الطبيعة والدنيا بما فيها في البيت الأول وما بعده لله وحده وهو جدل يؤكد وحدة القصيدة في موضوعها وعضويتها ويجعل منها كما قال الحاتمي إنسانا متكامل الخلق : (فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتعفّي معالم جماله)[37] .

لقد قطع الشاعر الكلام وختم بأحسن لفظ وأبينه مبتعدا عن ما رأيناه من ألفاظ قد تكون غريبة ولاسيما في وصف السحاب والبرق ليتيقن من وصول رسالته إلى المتلقي الذي أراد أن يستميل نفسه إلى الإيمان ، فقد اشترط حازم القرطاجني على الشاعر أن يكون في خاتمة القصيدة : " من الكلام أحسن ما اندرج في حشو

---

(37) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (-456 هـ) ، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط 4، 1972م، بيروت: 2/ 117.

القصيدة وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفّر للنفس عما قصدت إمالتها إليه "[38].

التكرار والمتواردات

أفاد الشاعر من طاقات التكرار فاستثمره لإيجاد علاقات صوتية نغمية ولتأكيد الفكرة (الحياة) التي اختفت تحت رمز الماء وما يدل عليه من ألفاظ مقاربة من نحو: الرباب (السحاب الأسود الذي يحمل الماء) في البيت الأول وجمعه لتعميم الفكرة ونشرها (الأمواه) في البيت الثاني وقدرته على الريّ والرواء (تروّى) في البيت الثالث و(البحرين) مكان يقرب من البحر للدلالة على الماء الذي تحمله السحب في البيت الثالث أيضا وصفته الحسنة الجميلة (العذب) ولفظه الصريح (والماء) وقدرته على الري، (البضاع والمنقع) في البيت الرابع عشر ولفظه صريحاً (الماء) في البيت السادس عشر.

ومن نحو تكراره اسم ليلى المرأة التي هي أيضا قرينة الماء في دلالتها الرمزية على الحياة الدنيا إذ كرر اسمها ثلاث مرات في الأبيات السابع والتاسع والحادي عشر ولما صرّح بأن الدنيا هي ما يخفيه ذكرها بلفظها الصريح مرة واحدة إزاء تكرار الماء وما توارد عليه تسع مرات وليلى ثلاث مرات.

ربما كان الشاعر يريد لدعوته الانتشار والذيوع فقد كرر لفظة (استنَّ) مرتين ، وبينهما المفعول المطلق (استنانا) ليطلق انتشار دعوته الإسلامية بصدد الحياة الدنيا ولا سيما أنه قرنه ببريق البرق (بزفيف البرق) فهي دعوة مصحوبة

---

(38) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني (-684 هـ)، تح: محمد الحبيب أبي الخوجة، دار الكتب الشرقية،1966م، تونس: 285.

ببريق البرق أي نوره والبرق كما أسلفنا في تعبير المنام يدل على الهدى بعد الضلالة في البيت الخامس، وما أكثر ما ورد النور في القرآن الكريم للدلالة على الإسلام.

ولما كانت الدنيا تعد وتخلف فقد كرر وعدها مرتين محذراً من وعودها الكاذبة التي لا تنفع في البيت العاشر "ترج وعدها ... وما وعدها نافع" وهي تأبى أن تحقق وعدها لمن تعد فكرر مفردة الإباء (أبيٌّ ، يأبى) في البيت الحادي عشر وكرر ما يفيد الأمنيات المقرونة بالدنيا (لعل الماء ، وعلّ غلاماً) في البيت السادس عشر ولتأكيد دوام الفكرة على تتابع الأزمان وتداول الأعوام قال: "أماني عام بعد عام" كناية عن التتابع والدوام في البيت الحادي عشر ولقد تأثر الشاعر وشعراء عصره بأسلوب التكرار في القرآن الكريم إذ يرى الدكتور.

سامي العاني أنهم استثمروه من أجل التقرير والتأكيد والإفهام والإقناع(39).

وكان ابن رشيق قد ميز بين حسن التكرار وقبحه فقال: "وللتكرار مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها ، فأكثر التكرار في الألفاظ دون المعاني وهو في المعاني دون الألفاظ أقل، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه " (40) ولا شك في أن التكرار في مواضعه من هذه القصيدة من النوع الحسن الذي أحبه ابن رشيق واستجاده .

مفاتيح لفظية بين عالم القصيدة وعالم القرآن

(39) الإسلام والشعر، الدكتور سامي مكي العاني، سلسلة عالم المعرفة، العدد 66، 1983م، الكويت: 220 .

(40) العمدة : 73 .

يشيع في القصيدة ألفاظ إسلامية تحمل دلالات قرآنية تشير إلى الدنيا ومفهومها في القرآن الكريم بحيث ترد وكأنها تفتح أقفال القلوب ليلج المؤمن بها إلى عالم القرآن الرحب الجميل فتجلي لنا تلك المفاتيح مخفيات القصيدة المعماة وراء عالم اللفظ الظاهر من نحو ما ورد في الأبيات من العاشر وحتى الثالث عشر من إشارات تقيم علاقات وثيقة بعضها ببعض من نحو (تثبك، ترج، وعدها، تجزيه، القرض، الظن) وهي ألفاظ تحيل على العمل في الدنيا والجزاء في الآخرة ولا سيما أن كثيراً من مثل هذه الألفاظ قد ورد في القرآن الكريم مقترنا بذكرً الدنيا والآخرة نحو: الثواب، والجزاء في قوله تعالى: "ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ...... فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين" [41] ونحو الرجاء في قوله تعالى: "إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ...... فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون"[42] ونحو الوعد في قوله تعالى: "أ فمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين"[43] وقوله تعالى: "يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغَرور" [44] ونحو الجزاء في قوله تعالى: "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب"[45] ونحو القرض في قوله تعالى:

---

(41) سورة آل عمران، من الآية: 145 والآية 148.

(42) سورة يونس ، الآيتان: 7 و 11.

(43) سورة القصص ، الآية : 61 .

(44) سورة فاطر، الآية: 5 .

(45) سورة البقرة، الآية: 85.

"إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم" [46] ونحو الظن في قوله تعالى: "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فأختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغنَ بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون"[47] فقد تجلى لنا أن الشاعر بهذه الألفاظ دخل إلى عالم الجمال القرآني وترك لنا هذه الألفاظ ليخفي تحتها مفاتيح المعاني التي ترشدنا إلى عوالم قصيدته وما فيها من شاهد الدنيا وغيب الآخرة.

الطباق والتقابل

ولما كانت العلاقة بين خفاء المعاني وجلائها في القصيدة علاقة جدلية فقد تنم لفظة عن المعنى ثم تعود فتخفيه لفظة أخرى ، فالمتلقي في دهشة ومتعة تجذبانه إلى سحر البيان فقد أقام الشاعر لعبة الفن على تقابلات دلالية وطباقات ومقابلات بأسلوب يشغل الفكر وينشط الذكاء لتحقيق انفعال ممتع يؤدي مع عناصر أخرى من حيل اللغة هدف الفن في تغيير فكر الإنسان وموقفه من شيء ما قبولاً أو رفضاً، وموافقة أو إعراضاً. ومن ثمَّ يعمق نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى الحياة والكون. "والطباق في أشعار العرب، وهو أكثر وأوجد في كلامها من التجنيس ... وإنما قيل (مطابق) لمساواة أحد القسمين صاحبه، وإن تضادا أو اختلفا في المعنى"[48].

---

(46) سورة التغابن، الآية: 17.

(47) سورة يونس، الآية: 24 .

(48) الموازنة، أبو القاسم بن بشر بن يحيى الآمدي، (-370ه)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، 1944 م: 254.

ولعلنا نعدم الطباق في هذه القصيدة سوى ما نجده في البيت الأخير الذي أقام فيه طباقين يؤكدان ملكية الله لما فوق السماء وما تحتها نطابق بين لفظين (فوق وتحت) ثم أكد ثانية الملك كله لله وقدرته على التصرف فيه عطاءاً ومعاً فطابق بين جملتي (يعطي ويمنع) وقد بدل الطباق فيما يدل عليه على القلق ولما كانت نفس الشاعر مطمئنة إلى إيمانها وموقفها الإسلامي من الدنيا فإن الطباق الذي كاد أن يغيب عن القصيدة يمثل استقرار نفس الشاعر وغياب القلق عن نفسية المؤمن المستقرة الراضية المطمئنة . ولكننا على قلة الطباق في القصيدة نجد تقابلات دلالية تقوم على جماليات التضاد في أكثر من بيت في البيت الرابع نجد التقابل بين (الليل المدبر بجثمانه والصبح الذي كاد يسطع) وهو تقابل يحمل في طيّاته تفاؤل المؤمن إذ يغيب الظلام ويشرق النور (الإسلام) بصبحه ويكرر الشاعر تقابلاً آخر في البيت الخامس الذي يلي التقابل السالف مباشرة بين (الليل الداجي والبرق المنتشر) ويعين النور في هذه المرة نور البرق حريق الغابة الذي يتهدد العصاة بعذاب النار، وثمة مقابلة أخيرة في البيت العاشر المتحدث عن (ليلى= الدنيا) التي يرجو الشاعر وعدها لكنها ما وفت يوماً له بوعد (أو ترج وعدها وما وعدها فيما خلا منك ينفع).

البحر والقافية

القصيدة من البحر الطويل وهي واحدة من خمس وعشرين قصيدة ومقطوعة ونتفة، وهي ثاني أطول قصيدة وردت على البحر الطويل الذي "ليس بين بحور الشعر ما يضارعه في نسبة شيوعه" [(49)] وهذا الشيوع يعزز دلالة

(49) موسيقى الشعر، د . إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط5، 1978 م، القاهرة: 59.

السحاب والمرأة على الدنيا فهي الأخرى شائعة معروفة للإنسان فهو أعرف بها من الغيب .

ويتكون البحر الطويل من أربع تفعيلات تتكرر في الشطرين وهي فعولن - مفاعيلن - فعولن - مفاعيلن وأكثر صور البحر الطويل شيوعا وأحبها إلى النفوس وأقبلها في الأسماع [50] هي فعولن (أو فعول) + مفاعيلن + فعولن (أو فعول) + مفاعلن وقد وردت القصيدة كلها على هذه الصورة العروضية للبحر وهي أكثر صوره شيوعا وعلى نحو شيوع معرفة الدنيا أيضاً.

وللبحر الطويل نبض خاص يكاد ينتهي نفس المنشد بانتهائه تماما كالحياة التي تنتهي بتوقف الإنسان عن التنفس فنطق بيت من البحر الطويل "يتم خلال تسع نبضات من نبضات القلب "[51] .

وللمنشد القدرة على إنشاد بيت واحد من البحر الطويل في النفس الواحد، ويجد مشقة وعنتا حين يحاول وصل بيتين منه في نفس واحد ... وربما كان العرب القدماء أطول الأمم نفسا في الشعر لكثرة نظمهم من بحر كالطويل[52].

وقافية القصيدة جاءت على العين وهي صوت مجهور مخرجه وسط الحلق فعند النطق به يندفع الهواء مارا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين حتى إذا وصل إلى وسط الحلق ضاق المجرى ولكن ضيق مجراه عند مخرجه أقل من

---

(50) ينظر: نفسه : 62 .

(51) ينظر: نفسه : 175 .

(52) ينظر: نفسه : 175 - 176 .

ضيقه مع الغين، مما جعل العين أقل رخاوة من الغين[53] والعين من حروف الربع الأول حسب نسبة شيوع حروف الهجاء وكثرتها في قوافي الشعر العربي وهي: الراء، واللام، والميم، والنون، والباء، والدال، والسين، والعين [54]. وهي الحروف التي تجيء رويا بكثرة وهذا شيوع آخر كشيوع البحر العروضي الذي دل على الدنيا.

ليس بدعا الزعم أن موضوع القصيدة الحياة الدنيا اعتمادا على الاتساع في تأويل السحاب والإبل والبرق والسماء والمرأة ولاسيما أن ابن رشيق القيرواني رأى أن الاتساع في التأويل إنما يأتي حين يتوافر الشعر على معاني عميقة تتعدد باختلاف رؤى النقاد للبيت الواحد وقد زاد البحث على اتساع ابن رشيق فخرج بتأويل القصيدة كلها وليس ببيت واحد منها يقول ابن رشيق معرفا الاتساع: "هو أن يقول الشاعر بيتا يتسع فيه التأويل فيأتي كل واحد بمعنى، وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ وقوته واتساع المعنى"[55].

لقد برع حميد بن ثور الهلالي في اعتماد الطبيعة واستثمارها في اداء رسالته الدعوية الإسلامية التي أراد تبليغها، ولا سيما أنه شاعر مبدع في الإفادة منها ومن صورها وصور المرأة في سائر ديوانه. ولقد كشفنا ما خفي تحت سرها الرائع المبدع بالإفادة من العلاقات التي قامت بين الأقسام الثلاثة للقصيدة واعتماد

---

(53) الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مطبعة الأنجلو المصرية، ط 4، 1975 م، القاهرة: 88 وينظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، د . حسام سعيد النعيمي، دار الرشيد، 1980 م، بغداد: 304 و 315 و 317.

(54) موسيقى الشعر: 248 .

(55) العمدة : 2 / 93 .

تعبير الرؤيا عند المسلمين، فالقصيدة بالتالي رؤيا رآها الشاعر مرموزة يؤول رموزها الناقد المعبر الحالم.

الخلاصة

تؤصل عينية حميد مفهوم الإسلام عن الطبيعة بعمق وخفاء من خلال التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان وتقع القصيدة في ثلاثة أقسام، يصف الأول السحاب الذي لا يمطر ويجعله رمزاً للدنيا التي تعد بالكثير ولا تدوم لأحد، ويصف الثاني المرأة (ليلى) ويجعلها رمزاً للدنيا أيضا، ويفصح في القسم الثالث عن موعظة تقول بزوال الدنيا ودوام الله الخالد مالك كل شي, وتأتي الدراسة الفنية لتكشف عن جمال الجدل القائم بين مطلع القصيدة وخاتمتها والعلاقات بين الأقسام الثلاثة، ويفيد الشاعر من التعجب القياسي والتشبيهات والمقابلات القائمة على التضاد وتكرار الألفاظ واعتماد مفردات قرآنية تحيل على مرجعية إسلامية تستمد جمالها من جمال القرآن وعوالمه من نحو: (الدنيا والآخرة، والجزاء والثواب، والقرض والوعد) وقد اعتمدنا في كشف الرموز والدلالات على تعبير الأحلام عند المسلمين، والاتساع في المعنى عند النقاد القدماء بحيث تبين لنا حميد شاعراً إسلاميا أكثر من كونه شاعر غزل كما رآه آخرون.

Abstract

Humaid bin Thawr's ' Ayniyyah between Implicitness and Explicitness

Prof. Ali Kamal Al-Deen Al-Fhady (*)

Humaid bin Thawr's 'Ayniyyah (the poem ending with 0the rhyme) firmly establishes the Islamic concept regarding nature as it deeply discusses the Islamic conception of the cosmos, life and man.

The poem falls into three parts: the first describes the clouds that do not rain and are taken as a symbol of life that is full of promises, yet it gives very little. The second part talks about Layla-the woman-as a symbol of life also. The third part is a moral describing the transience of life and the perpetuality of Almighty Allah, the owner of all things.

This study reveals the beauty of the differences between the beginning of the poem and its end as well as the relations between its three parts. The poem makes use of exclamation, simile,

---

(*) College of Arts / university of Mosul.

paradoxes which involve antithesis and repetition and using Quranic lexis, thus establishing an Islamic authority deriving its beauty from the beauty of the Qur'an and its world (life, the hereafter, punishment, reward, offer and promise). In explaining the symbols and meanings we have relied on the extension of meaning by ancient critics. Doing so, we have come to see Humaid as an Islamic poet rather that a writer of love poems.